الزبيري الإنسان..
وطن يحمل هم اليمن

،، أهداه ابن عمه وهو طفل حذاء لامعاً جديداً وظن أنه سيفرح هذا اليتيم.. ولكنه لاحظ أنه أخذ يفركه بفحمه ليذهب لمعته.. فعاتبه ابن عمه لماذا؟ قال: لا أحب أن البس حذاء لامعاً وحولي الناس حفاة.. مرات عديدة وهو يرى في منامه أنه يهز جبلاً راسخاً فيهتز له.. ففسر أحدهم حلمه أنه سيهز ملكاً عظيماً أو مملكة راسخة..

بكى بصوت عال حزناً على عذاب شعبه.. رفض عطايا الملوك وهي تأتيه صاغرة كما رفض الصدقات وهو وشعبه في أشد الحاجة لها.. هابه الملوك والرؤساء والسفراء.. وسكن في بيت من الصفيح وباع الاقفال والخرده.. محمد محمود الزبيري أحبه خصومه وأعداؤه كما عشقه محبوه والباعة شهد له كل من عرفه أنه أنزه سياسي، وأتقى عالم، وأطيب إنسان وأعدل قاض ..لم تنسه متغيرات الزمان وانفتاح الدنيا له أنين الجوع ودموع الثكالى.. كان يردد بيقين «بقلمي سأدمر ألف عام من الطغيان»..

سميرة الخياري

ولد عام ١٩١٠م في حي السلطان بصنعاء وتوفي والده وهو في العاشرة من العمر.. فتولى ابن عمه رعايته..

عرف عن محمود الزبيري التواضع وحب الآخرين منذ طفولته.. بدأ تعليمه في صنعاء في الجامع الكبير وحفظ القرآن صغيراً وكانت تلاوته تشد القلوب وكان يجتمع خلق كثير عندما يؤم المصلين في أي جامع ثم درس في المدرسة العلمية «دار العلوم».. ولم يفارق حلقات العلم التي كانت تعقد في الجامع الذي بدأ تعليمه فيه.. وعرف بشغفه للقراءة ومطالعته المستمرة لأمهات الكتب.

سافر مع عبدالله الوزير إلى الحج عام ١٩٣٨م وفي الحفل الذي يقيمه الملك عبدالعزيز آل سعود ألقى الزبيري قصيدة مطلعها:

قلب الجزيرة في يمينك يخفق
وسنا العروبة من جبينك يشرق

فأعطاه الملك حوالي عشرة آلاف ريال سعودي فرفضها وأرجعها وبقي مجاوراً للكعبة لطلب العلم مدة عامين ثم اتجه إلى مصر ليكمل دراسته في القاهرة والتحق بدار العلوم عام ١٩٣٩م وهناك التقى بمؤسس الإخوان المسلمين حسن البنا وعدد من علماء عدة دول عربية وأسس الزبيري وبعض رفاقه أول حركة منظمة لمعارضة الحكم الإمامي في اليمن في سبتمبر عام ١٩٤٠م تحت اسم «كتيبة الشباب اليمني» كان يحمل على عاتقه هموم بلاده ومعاناة اليمنيين وأنشد في رسالته إلى اليمن:

إليكم أيها الأحباب مني
تحية قادم بعد اغتراب
وها هي صورتي وافت
إليكم وفازت باللقاء والاقتراب
تكاد لشوقها تفتر شوقاً
وتمعن في التحدث والخطاب
ولما لم أجد للوصل باباً
أتيت أزوركم طي الكتاب
فليتك أيها الرسام تفضي
لأحبابي بما فعل النوى بي
فلو نفدت رسومك في ضلوعي
عثرت بها على قلب مذاب
ولو صورت يافنان وجدي
عرضت على الورى صور العذاب

اليمن أولى

ترك الزبيري دراسته وعاد إلى اليمن لأنها حسب رأيه تستحق جهوداً كبيرة لإنقاذ أهله والبلاد، وأنشد قصيدته التي مطلعها:

ماذا دهى قحطان لحظاتهم
بؤس وفي اكمامهم الام
جهل وأمراض وظلم فا
دح ومخافة ومجاعة وإمام

خطبة تلقي به في السجن

وبعد قدومه إلى اليمن قدم مذكرة للإمام المتوكل يحيى حميد الدين تتضمن مشروعا لإنشاء جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ألقى يوم الجمعة خطبة في الجامع الكبير في وجود الإمام استنكر فيها الظلم والجهل وطالب برفع المظالم وتحسين الأوضاع، وهذا ما أغضب الإمام وزج به في السجن مع عدد من رفاقه.. فانصرف للصلاة وتلاوة القرآن والذكر وكتابة الشعر مدة ثمانية أشهر وعند خروجه صدح بقصيدته.

خرجنا من السجن شم الأنوف
كما تخرج الأسد من غابها
نمر على شفرات السيوف
ونأتي المنية من بابها
ونأبى الحياة إذا دنست
بعسف الطغاة وإرهابها
ونحتقر الحادثات الكبار
إذا اعترضتا بأتعابها
ونعلم أن القضا واقع
وأن الأمور بأسبابها
ستعلم أمتنا أننا
ركبنا الخطوب حناناً لها
فإن نحن فزنا فيا طالما
تذل الصعاب لطلابها
وإن نلق حتفاً فيا حبذا
«المنايا» تجيء لخطابها

إلى آخر القصيدة

الحمار المكافح

وبوصف أليم يستعيد الزبيري ذكريات مأساوية في مقدمة ديوانه «ثورة الشعب» عام١٩٤٢م «اجتاح وباء التيفوس اليمن من أولها إلى آخرها، وكنت في رعب من هذا الوباء المتوحش مسافراً من تعز إلى صنعاء أشاهد الضحايا يتساقطون كالذباب وحماري يتسلق شواهق الجبال ويهبط أغوار الوديان وكنت كمن ينجو بروحه على ظهر حمار من الوباء، وشعرت بأن هذا الحيوان أهدى سبيلاً، وصعد بي الحمار المكافح قمة «سماره» وتصورت الناس يلفهم الرعب.. وتشنقهم البلاهة ويفترسهم المرض وتجلد ظهورهم كرابيج الحرس ولم يكن يوجد طبيب واحد فاستقدم الإمام الأطباء من أوروبا ليعالجوا أفراد الأسرة المالكة وحدها.. فظللت أبكي وأصرخ بحرية من فوق قمة «سمارة» ومن فوق ظهر الحمار حتى وصلت صنعاء في صبيحة يوم عيد.

حزب الأحرار

وعندما تأكد لأبي الأحرار أن لا فائدة من البقاء في صنعاء اتجه إلى عدن مع بعض رفاقه الأحرار وأسسوا حزب الاحرار عام ١٩٤٦م وأصدروا «صحيفة صوت اليمن» فأرسل الإمام قريباً للزبيري من آل الذاري إلى عدن ليعقلهم وينصحهم، وكان الذاري يعتقد أن الأحرار الذين صار لهم شهرة ورعب في قلب الإمام من القوة والمكانة يسكنون في قصر يحوطه الحراس ولهم خدم وحشم، وعندما بحث عنهم وجدهم يسكنون في دكان، أحدهم يطبخ سمكاً والآخر آتى بروتي يأكلون به السمك والزبيري منكباً يكتب شعراً ومقالات لصحيفته، فهال الذاري ما رآه وقال: أنتم الاحرار هكذا، ما هذا؟ «روتي ومرق وحوتي ويريدون مناطحة الإمام» فرد عليه الزبيري: إن لي قلماً سأدمر به ألف عام من طغيان الإمامة.

واستمر الكفاح حتى قيام ثورة ١٩٤٨م حيث قتل الإمام يحيى حميد الدين ولكن الثورة سرعان ما فشلت فعاد الإمام أحمد ابن الإمام يحيى حميد الدين المقتول ليبطش بكل رجالات الثورة فغادر الزبيري اليمن واتجه إلى باكستان والتقى بسفير سوريا في باكستان عمر بهاء الدين الأميري ونشأت بينهم أخوة وصداقة.

قال: كنا نلتقي في قصر رئاسة باكستان وكنت أحس بمرارة لا تختفي حينما كان يتألم وهو يتكلم عن حياة اليمنيين شبه المعزولة عن العالم وكأن الزمن يقف عندهم لا يحرك ساكناً وبعد اللقاء نودع بعضنا ويذهب كل منا إلى شئونه.

بائع الخردة

وذات مرة وأنا في السيارة بحكم عملي كسفير لمحت شخصاً يلبس كالزبيري ولم الحظ وجهه لأنه كان يحمل شوالاً على كتفه، فأومأت للسائق أن ينتظر لأرى هذا اليمني ولم أكن مستعداً للحظة الذهول التي اعترتني حينما رأيت هذا الشخص يحط الشواله من على كتفه وإذا به القاضي الفاضل الزبيري ليخرج منها الخردوات التي لاتساوي شيئاً ليقف في الشارع ليبيعها فلا يعلم إلا الله ما أصابني من ذهول وعدم استيعاب.. أهذا الذي يحمل همّ أمة بأسرها، أهذا الذي يقابل الرؤساء والوزراء والسفراء؟! ولا يشك أحد أن الزبيري من أثرياء اليمن وطلبت من السائق الذهاب.

بيت الصفيح

وفي اليوم التالي لم أبن له الأمر وطلبت منه عنوانه فأعطاني عنوان عمارة كبيرة وقال لي: اسأل عني وسيدلك أي شخص هناك، وذهبت إلى حيث العنوان وسألت عنه في العمارة فاخبرني أحدهم أنه يوجد يمني في الحوش المجاور، فقلت في نفسي ربما يسكن في عمارة مستقلة، فذهبت إلى الحوش وإذا به حوش خال من البناء إلا بناء صغيراً من الصفيح له باب خشبي مغطى بقطعة قماش يسميها اليمنيون فوطة فلم أصدق أبداً أن القاضي محمد الزبيري يسكن فيها، فقلت أسأل من يسكن في هذا الكوخ من الزنك، فناديت من طرف بيت الصفيح، فردت امرأة عما تسأل؟ فقلت: عن منزل القاضي الزبيري، فقالت: «هو هذا الذي أنت فيه» وإذا بصوت الزبيري بعدما رأني يقول «ما اداك لاهانا يا جني» فقلت له أنه يوم جمعة وأردت أن نذهب سوياً إلى الحمام الساخن فقال: انتظرني: فانتظرته قرابة النصف ساعة حتى تمنيت أني لم أت إلى هنا، ثم فتح الباب وعزم عليّ الدخول فدخلت ورأيت في بيت الصفيح سريراً عبارة عن حبال مشدودة من طرف جدار الصفيح إلى طرفه الثاني وليس الشوال الذي كان يحمله بالأمس.. فقال لي بصوت واثق:

عفا عنه الإمام فرفض العفو إلا أن يشمل الجميع

رفض عطايا الملوك ومساعدات السفراء وحمل شوالاً على كتفه لبيع الخردوات

رأى في منامه أنه يهز جبلاً راسخاً فيهتز له كان يردد «إن لي قلماً سأدمر به ألف عام من الطغيان»

«روتي ومرق وحوتي.. ويريدون مناطحة الإمامة».. قالها رسول الإمام للأحرار

في بيت من الصفيح استقبل سفير سوريا بباكستان

لعلك تفاجأت مما رأيت.. نحن لا نعيش لزخرف الدنيا وزينتها نحن نحمل هماً لا تنفع راحة ولا يطيب معه عيش، يكفيني من الدنيا لقمة تقيم صلبي وأم عمران «زوجته»، ولو اردت الدنيا لكانت مفتوحة اذرعتها لي في حضرة الإمام.. واعتذر عن سبب تأخره في فتح الباب لأنه قام بغسل ثوبه الذي يلبسه ولا يمتلك غيره.

مستورة والحمد لله

ولما وصلنا إلى الحمام دخلت إحدى غرفه وعندما تأكدت أن الزبيري قد دخل غرفة أخرى وأغلق الباب خرجت من غرفتي وتحسست حزامه فوجدت فيه ما لا يساوي «روبية واحدة» فدسست فيه «١٠٠» روبية وعدت سريعاً إلى حجرتي في الحمام حتى لا يشعر بي أحد لأني أعلم مدى عزة نفسه.

وعدنا إلى منازلنا.. وما هو إلا وقت قصير وإذا بالباب يدق ففتحت.. فإذا به الزبيري يمسك الفلوس في يديه ويقول بدون مقدمات: اختر أنا أو الفلوس، فحاولت أن ابدي له أنني لا أعلم عنها شيئاً فقال: لا تحاول الانكار لا أحد سيضع مالاً في جيبي غيرك.. فتبعته إلى منزله فوجدته يتغدى خبزاً مع شاي، فقلت له: نحن إخوة وما يجمعنا أكثر من ذلك فلا تجعل بيننا تكليفاً من الرسميات دعنا نتشارك الحياة سوياء، فقال لي: إن احتجت سآتي إليك وسأستلف منك.. ولكن مستورة والحمد لله.

وأخبر السفير السوري سفير الأردن في باكستان فأبلغ الملك عبدالله بن الحسين فاتصل بالإمام أحمد في اليمن وعرض عليه العفو عن الزبيري فوافق لكن الزبيري رفض العفو إلا أن يشمل الجميع.

بعد الثورة

وبعد نجاح الثورة في ١٩٦٢م رجع الزبيري إلى اليمن بطلب من الضباط الثوار وأستقبل في صنعاء استقبال الزعماء وعين وزير المعارف وأرسل له حافلة مليئة بالأثاث وعند وصولها إلى البيت طلب من السائق ارجاعها ولم يأخذ شيئاً وأصر في وزارته ألا يأخذ من مرتبه شيئاً فوق حاجته فمات وهو مدين ومنحته الجالية اليمنية في السودان الذي كان يزوره من أجل الدعوة والإصلاح مبلغاً يستعين به على العيش فأصر على إرجاعه.

من أجمل قصائده:

سجل مكانك في التاريخ ياقلم
فها هنا تبعث الأجيال والأمم

ذكريات زوجته

من ذكريات زوجته أم عمران قولها في لقاء سابق معها: عندما استقر لأبي الأحرار الوضع في عدن طلب مني اللحاق به خوفاً علي من مضايقات عسكر الإمام، وعلى ظهر سيارة نقل احجار سافرت إلى تعز رغم صعوبة الطريق التي لم تكن مرصوفة أو معبدة فكنت أدعو الله ألا تسقط علي هذه الاحجار.. ووصلت تعز ومكثت أياماً في بيت القاضي زيد الموشكي مع أسرته.. ولما علم الإمام بسفري لبسه الغضب وأمر عسكره بتفتيش بيت الموشكي وإعادتي إلى صنعاء واحضار ما يعثرون عليه من أوراق.. فما كان مني وأسرة الموشكي إلا الهرب من النوافذ والاستنجاد بأحدى الجارات لإخفاء ما بحوزتنا من أوراق.. ثم تنكرت بلبس رجل قبيلي حتى وصلت إلى عدن.. عندما كانت تسترجع ذكرياتها تصمت برهة وكأنها تبتلع غصة في حلقها ثم تواصل حديثها..

قالت: حرصه على أموال الشعب جعل منه مسئولاً فقيراً يعاني الجوع لأيام.. فبعث ميراثي من أبي لأشتري بقرة أسقيه من حليبها.. وكان يردد «لو لبسنا الحرير.. ونمنا على الوثير وشبعنا فلن نشعر بمعاناة الناس».

قالوا عنه

قال عنه المجاهد الجزائري الفضيل الورتلاني: أظن أنه لا يوجد له نظير في الوطن العربي علماً وكمالاً وإخلاصاً وهيبة.

قال عنه الدكتور/ عبدالعزيز المقالح: ليس محمد محمود الزبيري شاعراً فحسب ولا هو مناضل فحسب بل هو كذلك صحفي وزعيم وطني وروائي وكاتب وشهيد.

يقول عنه الشيخ عبدالمجيد الزنداني

ذلك هو العالم المسلم الواعي المجاهد الصادق محمد محمود الزبيري الذي ما تخلى عن دينه.. ولا تخلى عن عقيدته ولا تلوث سلوكه ولا في خلقه بل كان نبراساً للأجيال يتحرك بوعي وعلم وبصيرة، وقال الزنداني:

له قدرة بارعة على تجميع الناس على اختلاف انتماءاتهم الحزبية أو القبلية يبتسم في وجوههم، ويستمع إلى آرائهم، أحبه خصومه وأصدقاؤه.

وقال عنه الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر في مذكراته:

كنت أنا وغيري من الوطنيين الأحرار مؤمنين بالاستاذ الزبيري وبقيادته وآرائه من قبل قيام الثورة وكان تصوري عنه قبل أن اتعرف عليه شخصياً وكأنني أعرفه.

كان يقول عن نفسه: بدأت حياتي طالب علم ينحو منحى الصوفية في العزوف والروحانية وتعشقت كما تعشقت هذا اللون من الحياة رغم اليتم وشظف العيش وعشقت الحياة الأدبية وهمت بها هياماً ولم يصدني عن التفرغ لها إلا المعارك النضالية السياسية فروحانيتي مبني عليها الأدب وأدبي عوقب بالسياسة.

وكان يقول: كنت أحس إحساساً أسطورياً بأنني قادر بالأدب وحده على أن أقوض ألف عام من الفساد والظلم والطغيان.

وقال: إننا نريد أن نتحرر من العبودية الاجتماعية الكامنة في بعض التقاليد الرجعية والفوارق التي تميز بين طبقات الشعب وفئاته تمييزاً لا يقوم على أساس من المنطق والحق.

«إن حكاية وحدة الصف بدون وحدة الهدف حكاية تافهة وخرافة لا تعد أن تكون في الواقع غير اتفاق على نفاق متبادل وغش مشترك.. ولقد أنكرنا الظلم في العهد الإمامي ثم أنكرنا الخطأ في العهد الجمهوري.. لأن المبدأ لا يتغير بتغير الأشخاص والأسماء والأشكال.

الزبيري رائد الإصلاح في اليمن

هو أول من تقدم إلى الإمام يحيى ببرنامج إصلاحي
أول من قاد معارضة مظنمة
أول وزير للتربية والتعليم
أول من أنشأ حزباً
أول من أنشأ مؤتمرات شعبية على مستوى العالم العربي من أعماله الشعبية بعد نجاح الثورة حملات تنظيف الحارات، واستقبال متطوعي الأطباء، وإقامة حلقات تحفيظ القرآن.

المراجع:

– لقاء سابق للصحيفة مع زوجة الزبيري
– ديوان الزبيري «ثورة الشعب»
– كتاب «الزبيري أديب اليمن الثائر» للدكتور عبدالرحمن الإرياني
– كتاب «عظماء منسيون في التاريخ الحديث» للدكتور محمد موسى الشريف.